

الحرف العربي: الصوت والدلالة

الدكتور: بوجمعة الوالي

جامعة البليدة

حدّ اللغة، في أبسط تعريف لها، أنها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" التعريف لابن جني. ومن وظائفها، تتقدم وظيفة التبليغ أو الإخبار، كأن تقول: " حان وقت العشاء". وتليها وظيفة جمالية تظهر في مرحلة من مراحل اللغة؛ أي في مستوى تنتقل فيه اللغة من مستوى الحديث اليومي (النفعي) إلى مستوى فوق عادي؛ أي مستوى الحديث الإبداعي (الفني) كالشعر مثلاً...

ظاهرة اللغة، شغلت - منذ القديم - الفلاسفة في أصل نشأتها. وقد انقسمت الآراء حول هذه النشأة: ففريق يميل مع الرأي الذي يرى أنها إلهام وتوقيف من الخالق؛ حيث يرتبط الاسم بمسمّاه في علاقة تلازم وتوحد. وفريق آخر يرى في أن اللغة تواضع واصطلاح، وأن العلاقة بين الدال ومدلوله قائمة على الاعتبار والتعسف؛ إذ تعدم الصلة بين ذات الشيء والصورة اللفظية (الصوتية) الدالة عليه؛ فلا يوجد رابط بين كلمة " قلم " و هذا القلم الذي بين يدي الآن... وهام النحاة العرب قد اقتفوا أثر الفلاسفة القدامى، وانقسموا فريقين: " ابن فارس" يرفع راية المؤيدين لنظرية الإلهام، مستندا إلى الآية الكريمة" وعلم آدم الأسماء كلها " (1) وتصبح الأسماء عنده وقفا على مسمياتها. أما "ابن جني" فيناصر نظرية الاصطلاح؛ مؤولا الآية السابقة، أن الله أوجد القدرة عند الإنسان لاكتشاف اللغة واصطلاح الناس فيما بينهم على وضع الأسماء للأشياء والأفعال. ورفضوا علاقة التلازم بين الدال والمدلول، إلا ما جاء محاكاة لبعض الأصوات: كزقزقة العصافير وخريير المياه ورنين الجرس...

الأصل في نشأة اللغة، الاعتبار والتعسف، تداولت فيما بين الناس تداولاً توافقياً. واصطلحوا على وضع اللفظ لذات الملفوظ؛ ومن هنا يأتي تبرير تسرب الخطأ إلى اللغة (2) والعجز في دقة تحديد ذات الشيء؛ فكلمة "جون" صفة للأسود والأبيض معاً. وكلمة " عين " تحيلك إلى مدلولات متعددة: عين (العضو) وعين (مصدر الماء) و"عين" الشيء و"عين" الحسد...

إنني أتساءل: كيف استقر في ذهن بعض الباحثين الاعتقاد في توقيفية اللغة وأصروا على تأييد نظرية الإلهام في تشكل اللفظ ضمن هياكلها يكون فيها دالا على معناه، وصوت الحرف في الكلمة له دلالاته في تحديد المعنى، و بنوا هذا الرأي على اجتهادات " ابن جني " في القيام بعملية جرد انتقائي لبعض الكلمات في اللغة العربية التي صادف وأن تضمنت حروفا معينة كحرف " الغين " وحرف " الراء ". وإليك بعض تلك الأمثلة التي ساقها " ابن جني " والتي أعاد الاستدلال بها صاحب مقال " الصوت لفظا ومعنى " (3) سعيًا وراء إظهار قيمة هذه الأحرف التعبيرية وتضمنها لمعنى الاستتار والاحتجاب: غاب. غار. غال. غام. غاث... وأكتفي بهذه الأمثلة؛ لأترك للقارئ فضل الرجوع إلى القواميس ليتبين له أن هذه الكلمات قد اختيرت بعناية، كما لعبت فيها الصدفة دورا رئيسا؛ كي تجسد استنتاجهم القائم على وجود دلالة للحرف في اللفظ. ولتفنيد هذا الرأي، نشير السؤال الآتي: بم نفسر القصيدة والتعمد في إغفال أو إقصاء ذكر كلمات مماثلة وليس تدل على معنى الاستخفاء؟ فمثلا: غدق في العطاء؛ أكثر غدق: كثر غرن " الغصن ": تمايل غرل " الصبي ": لم يختن والأمثلة كثيرة لا داعي لذكرها كلها. ثم يمكن العثور على تعليل لوجود كلمات تدل صراحة على معنى الاختفاء والاحتجاب، وهي خلو من حرفي " الغين " و " الراء " ؟ والكلمات: حجب، أخفى، موه، ستر... دليل آخر على تعطيل الرأي الذي يرى الحرف وقفا على معناه. وكذلك نجد هؤلاء النحاة قد حصروا أمثلتهم داخل دائرة الأسماء فقط؛ فأين نصيب الأفعال من تلك الخواطر والتخريجات؟ فالأفعال: " رسم، ركب، رأى، رفع، ردم... لا نجد لحرف " الراء " - القاسم المشترك بين هذه الأفعال - أية سلطة في تقريب تباين دلالة هذه الأفعال. ونسأل مرة أخرى: لماذا تجنب هؤلاء النحاة الإشارة إلى الألفاظ التي اشتركت في احتواء هذه الحروف في (رويها) ككلمات: فرغ، لدغ، نبغ، مضغ... هل أثر حرف " الغين " في فرض تقارب في معنى هذه الكلمات ؟ إنني أسأل. لقد اهديت - وأنا بصدد البحث عن دليل - إلى آية في القرآن الكريم، لم يلتفت إليها النحاة - في حدود ما أعلم - استأنستها بها؛ لتعليل اعتباطية العلاقة دليل/مدلول. يقول تعالى في سورة الروم: "... و من آياته خلق السماوات والأرض. واختلاف ألسنتكم وألوانكم. إن في ذلك لآيات للعالمين " (4). ففي هذه الآية مربوط الفرس وبيت الصيد كما يقال. تعدد لغات البشر وتباين منطقهم، آية من آيات الخالق كاختلاف لون بشرتهم وتمايزها. وأنا لا أريد أن ينصرف ذهن القارئ إلى أنني استحضرت هذه الآية لأظهر طلاقة القدرة الإلهية

التي جعلت من النفس الواحدة، تعددها وتمائلها. وذلك جلي واضح من ظاهر الآية؛ لكنني قاصد تأويلها محاولاً فك إشكالية التضارب في الآراء حول توفيقية اللغة وتوقيفية نشأتها: اللغة كالعملة التي يتداولها البشر فيما بينهم؛ فيها وجهان: وجه الوقف والإلهام ووجه الوضع والاصطلاح.

وكما أنه لا يملك البشر القدرة على التحكم في لون بشرتهم؛ فكذا يكون الأمر في حيال الناس دون تعدد ألسنتهم واختلاف لغاتهم وقسره على التخاطب بلغة واحدة. فمشيئة الله أرادت هذا التعدد والاختلاف.

إن نشأة اللغة وتعدد إلهام، ومن توقيفية تعددها يأتي الاصطلاح والوضع؛ فذات الأشياء واحدة ومسمياتها مختلفة في لغات سكان المعمورة: فتجد مثلاً كلمة "كتاب" في العربية تقابلها كلمة "Livre" بالفرنسية و"Book" بالإنجليزية. ولفظ "بيت" يقابله "Maison" بالفرنسية و"House" بالإنجليزية و"Casa" بالإسبانية... فليس لهذا التباين في الأسماء سوى إثبات تعسفية الصلة بين اللفظ وذات المفوض. وكل هذه الأمثلة التي سقناها، تدعم رأينا في نفي التلازم بين الدال والمدلول، كما تلغي صفة التشاكل بين هذه الألفاظ الدالة على شيء واحد. يبقى - من هذا المنظور - الربط بين الصورة الصوتية للفظ وصورته المادية، ربطاً عرفياً تواضعياً صرف. فما بال الرهان على إسناد الدلالة إلى بعض أصوات الحروف المؤلفة لبعض الكلمات، إذا كانت الكلمة في ذاتها تبقى محصورة في طبيعة دلالتها الإشارية التعسفية؟ فانظر معي إلى سور آي القرآن الكريم التي تستهل ببعض الحروف: ((ن))، ((يس))، ((الم))، ((كهيعص))... فإذا جاز اللجوء إلى التأويل، فإنني أذهب إلى أن الحرف لا يدل على أي معنى في ذاته؛ مفرداً أو مثلياً أو جمعاً. فهي (الحروف) - في هذا الوضع - لا تعدو كونها أصواتاً لا دلالة لها. لكن أنظر إليها لو أنها ضمت أو نظمت وفق تركيب ونظام خاصين؛ فإنك ستحصل على عدد من الأسماء والأفعال والحروف والظروف، تعرض عليك الكثير من المعاني والأفكار، تثبت أو تتحرك حسب الوضعية التي تحتلها داخل نظام اللغة التواضعي. ثم ما الذي صرف اهتمام هؤلاء الباحثين عن التعرض إلى الكلمات التي تتقاطع في حروفها من آخرها؟ والأمثلة كثيرة: ((لمع))، ((سمع))، ((قمع))، ((طمع))، ((دمع)) ... ((نبغ))، ((فرغ))، ((مضغ))، ((دمع))، ((بلغ))... ما يبدو جلياً، أنه لا أثر لأي تقاطع أو تقارب معنوي بين هذه الكلمات، وإن تجانست في بعض حروفها. ومرة أخرى، يظهر التعسف في إضفاء الدلالة على الحرف: مفرداً أو مجتمعاً. ولذلك استقر لدى بعض النحاة

الرأي الفاصل أن " اللفظ لا يدل جزؤه على شيء من معناه " (5) وهذا واقع تعيشه جميع لغات البشر، بغير أن يكون هناك تفاضل فيما بينها؛ من باب تطابق دوالها بمدلولاتها. إن محدودية مخارج الحروف في جهاز التصويت، أدت إلى محدودية أخرى في عدد حروف اللغة. وهذه القلة الماثلة، لا يمكنها التعبير بمفردها على هذا الكم الهائل من المعاني. ويتعذر علينا أن نجد لكل هذه المعاني حرفاً له خصوصية الدلالة على أي من هذه المعاني. في النهاية تبقى دلالة الاسم على مسماه " دلالة عرفية، اتفاقية، اصطلاحية " (6). ويبقى الإنسان مسؤولاً عن هذا النظام الوضعي لظاهرة اللغة.

الهوامش:

- 1 - البقرة، آية: 30.
- 2 - حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ط2/ 1980، ص 24.
- 3- يحيى عبد الرؤوف جبر، الصوت لفظاً ومعنى، مجلة اللسان العربي، العدد. 37/ 1993، ص 48-34
- 4 - الروم، آية، 22.
- 5 - محاضرات في علم النفس اللغوي، ص 60.
- 6- نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط6/ 2001، ص 85.